


صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية (ظاهرة الإسلاموا فوبيا أنموذجا)

إعداد : د.حسين إسحاق داؤود يوسف
الأستاذ المشارك بكلية الدعوة الإسلامية
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية

مستخلص البحث

خلصت الدراسة التي عنواها " صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية" والتي كان منهجها التحليلي والاستقرائي والوصفي، وقد هدفت بتوضيح صورة الإسلام لدى الغرب والعالم بأنه دين تسامح، خلافا لما ورد بالوسائل الغربية تشويها للإسلام، متناولا تلك الوسائل المشوهة واستخدامها ردا وتوضيحا لصورة الإسلام، لقد تمّ في وسائل الإعلام الغربية التصور الزائف للإسلام والمسلمين، بأقلام وأصوات وصور صناع الرأي والمثقفين والإعلاميين في الغرب؛ بطريقة ظاهرة التناقض والتشويه والتجني واوضحت هذه الدراسة الأسباب الحقيقية وراء تشويه صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية. ومسلسل الإساءة للإسلام في وسائل الإعلام، ومصادرة الإسلام وتفريخ الإرهاب، وفوبيا الإسلام في وسائل الإعلام الغربية. وخلصت بأهم النتائج منها لقد أصبحت وسائل الإعلام في عصرنا الحالي من أقوى أسلحة التدمير الشامل، إن مقاومة الإسلام للعلمانية، واستعصائه على العلمنة، هو السبب الحقيقي وراء تشويه صورته، إن زيادة عدد المهاجرين المسلمين إلى أوروبا؛ هي السبب وراء تصاعد المشاعر المعادية للإسلام وتشويه صورته ـ واصت الدراسة تصميم خطط كفيلة لمواجهة الحملات الغربية ضد الإسلام بإنشاء مركز مختص في جمع المعلومات وتحليلها، وإيجاد قنوات للحوار مع القيادات السياسية والفكرية والإعلامية والثقافية في الغرب. وختمت الدراسة بأهم المصادر والمراجع.

Abstract

:Islamphobia & West

(Picture of Islam in western media)

The study Their address “The Image of Islam in Western Media” concluded that its approach was analytical, inductive and descriptive. It aimed to clarify the image of Islam to the West and the world as a religion of tolerance, in contrast to what was reported by Western means a distortion of Islam, dealing with these distorted means and using them in response and clarification to the image of Islam. The false perception of Islam and Muslims has been carried out in the Western media, with pens, voices and images of opinion makers, intellectuals and media professionals in the West. In the manner of the phenomenon of contradiction, distortion and fraud. This study clarifies the real reasons behind the distortion of the image of Islam in the Western media. And the series of insulting Islam in the media, the confiscation of Islam, the incubation of terrorism, and the phobia of Islam in the Western media. And I concluded with the most important results from them: The media in our time has become one of the most powerful weapons of mass destruction. Islam’s resistance to secularism, and its intractability to secularization, is the real reason behind distorting its image. The increase in the number of Muslim immigrants to Europe; It is the reason behind the escalation of anti-Islam sentiments and the distortion of its image - the study continued to design plans to confront Western campaigns against Islam by establishing a center specialized in collecting and analyzing information, and creating channels for dialogue with political, intellectual, media and cultural leaders in the West. The study concluded with the most important sources and references.

صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

يشهد العالم في عصرنا الحالي تطوراً رهيباً في وسائل الإعلام، حيث هيمنت هذه الأخيرة على مجالات الحياة السياسية، والاجتماعية، والفكرية، والثقافية، وأدت أدواراً مهمة في تغيير بعض المفاهيم، أو ترسيخ مفاهيم أخرى قد تكون صائبة أو خاطئة.

تتعرض صورة العالم الإسلامي لكثير من التشويه والتحريف والتضليل، في أغلب وسائل الإعلام الغربية، التي تروج صوراً نمطية عن الإسلام والمسلمين، تثير الشك والريبة والخوف، وتوُجِد أسباب النفور من كل ما له صلة بالدين الإسلامي.

ويواجه الإسلام اليوم جملة من التحديات تختلف عن كل الأشكال الأخرى من التحديات التي عرضت له في تاريخه، فهي تضع المسلمين أمام اختيار عسير يمس هويتهم وصورتهم ومكانتهم بين الأمم، ويهدد مستقبلهم، ويعوق تحقيق أهداف رسالة دينهم ذات الأبعاد الكونية والحضارية.

ومن بين أخطر هذه التحديات انتشار ظاهرة التشويه الإعلامي لصورة الإسلام والمسلمين في العديد من وسائل الإعلام الغربية، مما أدّى إلى تحريف الحقائق وتضليل الرأي العام الغربي، وتأليبه ضد المسلمين في كل مكان، بمن فيهم المسلمون الذين يعيشون في المجتمعات الغربية، والمسلمون الذين هم من الأبناء الأصلين لهذه المجتمعات.

وليس ثمة شك أن العلاقة بين الإسلام والغرب حملت العديد من الصور والأفكار النمطية، بحيث أصبحت كلمة الإسلام مشحونة بكل صور الماضي، ولهذا فإن نشر الصور الكاريكاتيرية والمعلومات المشوهة عن الإسلام في الصحف والمجلات والمحطات الفضائية، ليس وليداً للحظة الآنية، بل سبقته عمليات تشويه متعددة.

لقد كرّست وسائل الإعلام الصورة النمطية عن العلاقة الوطيدة بين الإسلام والإرهاب، وبأن المسلمين سبب نشوء ظاهرة الإرهاب في العالم، حيث تشكلّت هذه الصورة في أذهان الناس منذ أحداث ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١م، وامتدت هذه الحادثة واستفحلت أكثر خاصة بعد حدوث العديد من الهجمات الإرهابية في العالم، وآخرها الهجوم الإرهابي على جريدة "شالِ إيبدو" الفرنسية ومخلفاته.

فوسائل الإعلام الغربية حاولت إظهار العالم الإسلامي أمام الرأي العام متهماً وسبب كل الاعتداءات الإرهابية التي تحدث في العالم، وذلك من أجل ترسيخ فكرة في أذهان الناس بأن هنالك علاقة وطيدة بين الإسلام والإرهاب، وهذا لتبرئة العالم الغربي من أي تهمة وتجميل صورته من جهة، ولممارسة عنصرية ضد المسلمين المقيمين بالأراضي الأوروبية من جهة أخرى، وقد نجحوا في مساعيهم حتى أضحت فشوهوا الإسلام ولفقوا الكثير من التهم حوله.

وأضحى الإعلام اليوم قادراً، بفضل التطور الهائل لتقنياته، على المساهمة في بناء الإنسان أو هدمه، وعلى ترسيخ القيم أو تخريبها، كما أنه أصبح قادراً على تعزيز التفاهم والاحترام بين الشعوب بقدر ما هو قادر كذلك على أن يشوه الآخرين ويضفي التعميم على قضاياهم.

ومن ثم يرصد هذا البحث علاقة الإسلام مع وسائل الإعلام الغربية،وكيف تم تشويه صورة الإسلام كدين، وصورة المسلمين الذين يعتنقون هذا الدين، ويحاولون أن يعيشوا بسلام على هذه الأرض.

وبناءً على هذا فقد تم تقسيم البحث إلى أربعة مباحث وخاتمة اشتملت على نتائج وتوصيات على النحو التالي:

المبحث الأول: الأسباب الحقيقية وراء تشويه صورة الإسلام في وسائل الإعلام الغربية.

المبحث الثاني: الغرب.. ومسلسل الإساءة للإسلام في وسائل الإعلام.

المبحث الثالث: الغرب.. ومصادرة الإسلام وتفريخ الإرهاب.

المبحث الرابع: فوبيا الإسلام.. في وسائل الإعلام الغربية

الخاتمة والتوصيات

أهم المصادر والمراجع

المبحث الأول
الأسباب الحقيقية وراء تشويه صورة الإسلام
في وسائل الإعلام الغربية.

لم يكن صعباً على مختلف وسائل الإعلام الغربية في فترة من الفترات العمل على إشاعة الخوف من الإسلام، وإحداث نوع من الإقناع لدى الإنسان الغربي بأن الإسلام هو دين العنف والإرهاب، ولذلك تم العمل على إيجاد صورة مشوهة عن الإسلام والمسلمين تجرد الإسلام من كامل خصائصه وملامح حضارته الإنسانية.

وفي الواقع أن هنالك أسباباً ظاهرة وبواعث كثيرة تدفع وسائل الإعلام الغربية، بمختلف مكوناتها، إلى تشويه صورة الإسلام والمسلمين، لعل أبرزها ما يلي:

١- الجهل وسوء الفهم بالإسلام.

٢- الإرث الاستعماري.

٣- أفعال وتصرفات بعض المسلمين المتطرفة.

٤- الخوف من الإسلام "الإسلاموفوبيا".

٥- قدرة الإسلام على الانتشار والامتداد.

٦- إقبال الغربيين على اعتناق الإسلام بكثافة وبكل تلقائية وطواعية واقتناع.

٧- استمرار العلاقة غير المستقرة بين الإسلام والغرب عبر التاريخ.

٨- تزايد أعداد العرب والمسلمين وأبنائهم وأحفادهم في البلدان الغربية، ودخول نخبة منهم تحت قبة البرلمانات الغربية(1).

واللافت للنظر والداعي للاستغراب أن بقية الأديان في العالم لا ينظر إليها مثل ما ينظر إلى الإسلام كدين مخيف وعدواني، فأتباع البوذية والكونفوشية والهندوسية كثر في المجتمعات الأوربية والأمريكية، لكنها لا تلقى ما يلقاه الإسلام من إقصاء وتخويف وتشويه.

إذن يتبين بوضوح أن ثمة أسباباً أخرى حقيقية خفية تكمن وراء التحامل الإعلامي الغربي ضد الإسلام والمسلمين، وهي الأسباب التي يمكن التأكيد على أن تبديدها ومواجهتها ليس بالأمر الهين، خصوصاً أنها تبدو

متجذرة في المخيلة الغربية التي أضحت لا تصدق إلا ما هو سلبي تجاه الدين الوافد عليها.

إذن الأسباب الحقيقية وراء تشويه صورة الإسلام هي:

* مقاومة الإسلام للعلمانية، واستعصائه عليها، وعلو نجمه في سماء التدين بديانات السماء.

ففي مجلة "شئون دولية- international Affairs- الصادرة في كمبردج -يناير سنة ١٩٩١م- "ملف" عن الإسلام، فيه دراستان عن "الإسلام والمسيحية" و"الإسلام والماركسية"، كتبهما اثنان من علماء الاجتماع: د. إدوار موتيمر" ود. "إرنست جيلنر" وفي هاتين الدراستين تعليل للحملة الغربية على الإسلام، يُرجع سبب هذه الحملة- التي تصاعدت عقب سقوط الشيوعية- إلى استعصاء الإسلام على العلمنة، الأمر الذي جعل ثقافته صامدة أما الثقافة الغربية التي تعيش مأزق المسيحية والعلمانية، ولا أدرية وتفكيكية وفوضوية وعدمية ما بعد الحداثة.. يقول هذان العالمان:

"لقد شعر الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحل محل التهديد السوفيتي.. وبالنسبة لهذا الغرض كان الإسلام جاهزاً في المتناول.. فالإسلام رافض لأي تمييز بين ما لله وما لقيصر.. وهو لا يسمح لمعتنقيه بأن يصبحوا مواطنين في دولة علمانية.. إنه استثناء مدهش وتام جداً من النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول: إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يُحِل العلمنة محل الإيمان الديني.. فلم تتم أية علمنة في عالم الإسلام، وسيطرة هذا الدين على المؤمنين به هي سيطرة قوية، بل هي أقوى الآن مما كانت عليه من مائة سنة مضت.. إنه مقاوم للعلمنة في ظل مختلف النظم السياسية – راديكالية.. وتقليدية.. وبين بين- وعمليات الإصلاح الذاتي تتم في العالم الإسلامي باسم الإيمان الديني، وليس على انقاض هذا الإيمان.. الأمر الذي مكن العالم الإسلامي من الإفلات من المعضلة التي جعلت مجتمعات أخرى ضحية للاضطراب والإذلال؛ بسبب

إضفاء الغرب الطابع المثالي على نموذجه في التحديث، الأمر الذي جعلها تقف منه موقف المحاكاة والتقليد..

ذلك هو التفسير الأساس لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة.. ولأن الإسلام هو الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي للثقافة العلمانية الغربية [ثقافة الشك واللا أدرية.. ثقافة الأغصائيين الذين لا روح لهم والعلماء الذين لا قلوب لهم] كان الإسلام، من بين ثقافات الجنوب، الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة على الإسلام..." ! (٢).

إذن: فهذه الحملة الغربية الشرسة لتشويه الإسلام- بشهادة هذه الدراسات العلمية الغربية- ليست نابعة من عيوب جوهرية وحقيقية في الإسلام- كما يزعم البعض- ولا هي نابعة من الجهل بحقيقة الإسلام- كما يحسب كثير من المسلمين- وإنما هي نابعة بشهادة هؤلاء العلماء الغربيين- من إفلاس المسيحية الغربية وإفلاس العلمانية الغربية، أي إفلاس "الدين الكنسي" و"الدين الحداثي"، في الغرب الحديث والمعاصر ومن فشل الغرب الاستعماري في إدخال الإسلام وأمته وعالمه إلى النفق العلماني المظلم الذي دخل فيه الغرب، الأمر الذي جعل الكثيرين يتحدثون- ثقافياًودينياً وديموجرافياً- عن "موت الغرب" و"صحوة الإسلام"!! تلك هي حقيقة الأسباب الموضوعية والجوهرية الكامنة وراء الهجمة الغربية على الإسلام وتشويه صورته، وهذا هو السبب في شدة الضربات التي يحاول بها الغرب معالجة صحوة الإسلام وإلا فلو كان الإسلام هزيلاً لما استأهل هذا الضرب الشديد، وهذا التشويه المخيف!!

وهذه الحقيقة- التي شهد بها العلماء الغربيون- تدعو المسلمين إلى الاعتزاز بإسلامهم، ولكن دون غرور وتدعوهم إلى مواجهة هذه الهجمة على دينهم، ليس بهذه المحاولات البلهاء التي يريد أصحابها تزيين الإسلام بالمساحيق الغربية، كي يرضى عنه الغربيون وإنما إلى مواجهة هذه الهجمة بالكشف عن حقائق الإسلام، ليعلمها الذين لا يعلمون في الغرب وغير الغرب- ويكشف الدعاوى الكاذبة، التي تستر وتزيف الأسباب الحقيقية لهذه الهجمة الغربية على الإسلام.. كذلك، يجب أن نكشف

الزيف الذي تمارسه هذه الحملة على الإسلام، عندما يزعم أقطابها أنهم إنما يهاجمون "الأصولية الإسلامية"، ولا يهاجمون "الإسلام" فسبر غور كتابات هؤلاء الكتاب الغربيين، إنما يكشف عن أنّ حديثهم، بل وتعريفهم "للأصولية الإسلامية" إنما هو التعريف "لحقيقة الإسلام".!!

فالأصولية- في المصطلح الإسلامي والفكر الإسلامي والتراث الإسلامي- هي الانطلاق من الأصول- أصول الدين أصول الفقه- وهما علمان من أبرز علوم العقلانية الإسلامية.. العقلانية التي تفقه الأحكام، وتفقه الواقع المعيش، ثم تعقد القِران بين الفقهين والقراءتين.. ومن ثم، فالأصولية الإسلامية هي على النقيض من "الأصولية المسيحية" و"الأصولية اليهودية" اللتين مثلتا وتمثلان الجمود والحرفية والتقليد، ومعاداة للعلم والعقل والتجديد.. والوقوف- ببلاده- عند ظواهر النصوص..

والكُتّاب الغربيون، الذين يهاجمون الإسلام تحت غِطاء مصطلح "الأصولية الإسلامية" يكشفون هم أنفسهم عن هذه الحقيقة- حقيقة أن مقصدهم في الهجوم هو الإسلام-، ويشهد بذلك الرئيس الأمريكي الأسبق "ريتشارد نيكسون"- وهو مفكر إستراتيجي عندما يتحدث عن الأصوليين الإسلاميين، الذين يدعو – نيكسون- الغرب- أمريكا وأوروبا الغربية والشرقية- إلى "الاتحاد لمواجهة خطرهم الداهم بسياسة واحدة".

هؤلاء "الأصوليون الإسلاميون -"في تعريف نيكسون- وباعترافه،

* وهم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة، عن طريق بعث الماضي..

* ويهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية..

* وينادون بأن الإسلام دين ودولة.

* وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل، فهم ليسوا محافظين، ولكنهم ثوار"!.. (٣).

وعلى هذا الدرب- في تعريف "الأصولية الإسلامية" يسير المفكر الإستراتيجي الأمريكي "فرانسيس فوكوياما"، والمفكر الإستراتيجي

الأمريكي "صموئيل هنتنجتون" اللذان يصفان الأصولية الإسلامية "بالفاشية، وبأنها تشكل تحدياً أيديولوجياً هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية"!.. ثم إذا بهذه الأصولية الإسلامية عندهما ليست كذلك إلا لأنها: "الإسلام، الذي هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة الأمريكية المسيطرة في السياسة الدولية.. فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد منهم.

فهو وحده قد ولّد تكراراً خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، وترفض لا السياسات الغربية فحسب، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: الدولة العلمانية نفسها.. ومن ثم فإن الصراع الحالي ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب.. ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية، الأصولية- الفاشية الإسلامية- التي ترفض الاستهلاكية الغربية، والحداثة الغربية، والعلمانية الغربية، والمبدأ المسيحي، دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله- فصل الدين عن الدولة-.."[٤].

فالحرب الغربية المعلنة على ما يسمونه ب"الأصولية الإسلامية" هي- في الجوهر والحقيقة- معلنة على حقيقة الإسلام، لا لشيء إلا لأنه المستعصي الأول- بل الوحيد- على العلمنة، أي على الذوبان في النموذج الحداثي الغربي، والرافض- من ثم- للوقوف ذليلاً أمام هذا النموذج الغربي موقف التقليد والمحاكاة!.. وهو موقف إسلامي يجعل من التدين بالأصول الإسلامية طاقة إيمانية تفجّر في المسلم طاقات العزة والسيادة والغَلَبَ، فلا يرضى بالتبعية- السياسية، والفكرية، والاقتصادية، والأمنية- للمركزية الغربية، والهيمنة الغربية... وهذا هو جوهر ما يخشاه الغرب ويحاربه الغربيون في الإسلام!!..

تلك هي الأسباب الحقيقية التي تشهد بها وتعلنها الشهادات الغربية.. للهجمة على الإسلام وتشويه صورته.. وهي أسباب تدعو المسلمين- وهم يخاطبون الغرب، ويقدمون إليه حقائق الإسلام- أن يتحدثوا من موقع العزة والاعتزاز بالإسلام- دونما تكبّر أو غرور- وألا يقعوا في خطأ- بل

خطيئة- تقديم التنازلات التي تزيف الإسلام، على أمل أن يرضى عنه هؤلاء الذين يعادونه، لأنهم يعرفونه، ويعرفون حقيقته، وليس بسبب جهلهم له، كما يحسب بعض السطحين والجهلاء!.. وصدق الله العظيم القائل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة: ١٤٦].

وحقيقة أخرى من حقائق هذه الهجمة الغربية الشرسة على الإسلام وتشويه صورته، هي أن عداء هؤلاء الغربيون للإسلام، ليس لأن المسلمين يغايرون الغرب في الدين، ولا لأنهم يمارسون من الشعائر الدينية الإسلامية ما يخالف شعائر النصرانية الغربية.. فالديانات الوضعية، هي الأخرى، تغاير النصرانية الغربية في الشعائر والاعتقادات، ومع ذلك فإنها لا تحظى بعشر معشار ما يحظى به الإسلام من العداء..

ذلك أن الذين يناصبون الإسلام العداء من الغربيين هم أولئك الذين يعرفون أنه ليس مجرد شعائر ومناسك وعبادات: ولا مجرد مالك لأقدم وأعرق المواريث الحضارية العالمية، وإنما هو، مع كل هذا وفوقه:

* "توحيد" يجعل المؤمنين به يرفضون الخضوع لكل الطواغيت، وفي مقدمتها طاغوت الهيمنة الغربية وإمبرياليتها.

* و"مشروع نهضوي" يعنى- عندما يوضع في التطبيق- ليس فقط تحرير ضمائر المسلمين وعقولهم من الهيمنة الثقافية الغربية، وإنما- أيضاً- تحرير أوطان العالم الإسلام من القواعد العسكرية الغربية.. وتحرير محيطات العالم الإسلامي وبحاره من الأساطيل العسكرية الغربية- وتحرير سياسات حكومات العالم الإسلامي من التبعية للمركزية الغربية.. ومن ثم إعادة الأمة الإسلامية إلى مكانتها الطبيعية في مقدمة الأمم والحضارات..

والإسلام، مع ذلك وفوق ذلك، دعوة لتحرير ثروات العالم الإسلامي من استغلال الرأسمالية الغربية، المتوحشة (٥)..

المبحث الثاني
الغرب.. ومسلسل الإساءة للإسلام في وسائل الإعلام.

أخذت في السنوات الأخيرة الوسائل الإعلامية الغربية في تقديم الصورة المشوهة للعرب والمسلمين، والمضللة؛ بوصفهم إرهابيين ورعاع ولصوص وفوضويين، وتكرس تلك الوسائط لجعل الصورة نمطية مترسخة في العقل الغربي، وخصوصاً في عقل الأطفال الذين باتوا يربطون لفظ عربي/ مسلم؛ بتعبيرات ومعايير معينة مثل: بنزين، طماعين، وإرهابيين، وأوغاد، وبدو... وفي الوقت ذاته يجهلون ما للعرب والمسلمين من إسهامات عديدة في الحضارة الإنسانية، لقد تأججت مشاعر خوف الغرب من الإسلام والمسلمين، ولا سيما مع نشوب جملة من الأحداث الإقليمية والدولية، التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط، وبذا لاحت في الأفق ظاهرة غريبة جداً خطيرة؛ وهي "الإسلاموفوبيا" بوصفها حالة من الخوف المرضي وغير المبرر من الإسلام، كما انعكست هذه الظاهرة على الوجود العربي والإسلامي في أوروبا والغرب (٦).

وهكذا بدأ العالم الغربي وكأنه مصاب بلوثة عقلية؛ جعلته يكره فعلاً العرب والمسلمين، ويراهم أقواماً من الأشرار، ولذلك أعطى لنفسه الحق أن يتعامل معهم بوحشية مستهيناً بأرواحهم ومقدساتهم؛ لأنهم من وجهة نظره لا يستحقون غير ذلك؛ فمعشر العرب والمسلمين لا كلمة لهم، ولا رؤية، ويكره بعضهم بعضاً وتغيب عن قواميسهم كلمة "اتفاق" وتغمرهم أوحال الأنانية، والشماتة، والتخاذل، وتقسو قلوبهم على ذويهم.

وأهم من كل ذلك أن الملايين من بينهم قد رحلوا شمالاً، وأقاموا في المجتمعات الغربية لشيء واحد هو "أسلمة الغرب وأوروبا" . وبات راسخاً في الأذهان أن "الإسلام" هو مصدر الإرهاب. والمؤلم أن أطروحات كثيرة ومغلوطة، قد انتشرت في الغرب أن المهاجر المسلم يعمل ما في وسعه كي يقود المجتمع الغربي باتجاه حضيرة الإسلام. ومنها أيضاً أن الإسلام "الأصولي" قد تغلغل في القطاع الاقتصادي الغربي، مما يسهل توفير الدعم ل"جنود الإسلام"، الذين يحاربون في أفغانستان والعراق (٧).

وفي ظل هذه الأجواء المشحونة بالعداء للعرب والمسلمين، سكبت "الإسلاموفوبيا" مزيداً من الزيت على النار وجعلت الغربيين؛ يشعرون بأنهم غير آمنين على أنفسهم في بلدانهم. وأصبح حالهم حال من يترقب لحظة وقوعه "في الأسر الإسلامي" ، وهكذا انتشرت أفكار ومخاوف أشد فتكاً بأمن الغربيين.

ولئن كانت أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م هي التي خلطت الأوراق وجعلت كل ما هو إسلامي تحوم حوله الشبهات. فلا شك أن الرسوم الكاريكاتورية هي التي كشفت جذور ومخاطر ظاهرة الإسلاموفوبيا التي فجرتها الصحف الدنماركية؛ عندما نشرت ١٢ رسماً كاريكاتورياً للنبيﷺ في سبتمبر ٢٠٠٥م، وأعادت نشرها صحيفة نرويجية في ١٠ يناير ٢٠٠٦م، وفعلت الشيء نفسه صحيفة (فرانس سوار) الفرنسية وبعض الصحف الأوربية الأخرى[٨].

وأشعلت حريقاً احتجاجياً امتدت ألسنته إلى أماكن كثيرة في العالم الإسلامي وخارجه. ومما زاد الطين بلة أن الصحف الفرنسية التي أعادت نشر الرسومات، قد ساقت تبريرات غير منطقية لا تنطلي على عاقل؛ فذكرت أنها لن تعتذر عن إعادة نشر هذه الرسوم بدعوى حرية الرأي والتفكير والاعتقاد.

وقالت إن لها الحق في أن ترسم من تشاء من الأنبياء؛ انطلاقاً من حرية الرأي التي يتمتع بها بلد علماني (مثل فرنسا).

وتعمدت أن تتهم المسلمين بضيق الأفق وعدم التسامح، لأنهم يعتبرون رسومها إهانة للإسلام، مع أن شكل هذه الرسوم ظريف ولطيف.

وقد لا يكفي أن نذكر أن صحيفة "فرانس سوار" كان يمتلكها سابقاً أحد أساطين المال والسلاح اليهود في أوروبا.

وأنها عندما تطوعت بالدخول في غمار هذه الأزمة، لم يكن لها من هدف سوى إذكاء نيران الفتنة ضد المسلمين في أوروبا،و كان قبل أكثر من عام قد تبنت دعوات لطرد المسلمين من أوروبا، بحجة أنهم يثيرون القلاقل ويهددون أمن واستقرار الشعوب الغربية الأوربية.

اللافت للنظر أن كرة الثلج التي تمخضت عنها أزمة الرسومات المشؤومة، ظلت تتدحرج في كل الاتجاهات وازدادت ضخامة بمظاهرات يرعاها اليمين الأوروبي؛ دفاعاً عن حرية الرأي التي يريد مسلمو العالم خنقها. وقد رجح رئيس الوزراء الدنماركي في عناد كفة الفتنة عندما اعترف بأنه لا يستطيع أن يمنع الصحافة في بلاده من أن تكتب أو ترسم أو تنشر ما تراه، مؤكداً أنه يقف إلى جانب الحرية [٩].

وبعيداً عن المكابرة، وذلك الإصرار على إهانة المسلمين في قدس أقداسه؛ فإن الحجج التي ساقها رئيس الوزراء الدنماركي بشأن انتصاره لحرية التعبير، هي حجج واهية فضلاً عن أنها غير صحيحة؛ لأن هناك جملة من القضايا ذات الصلة بتاريخ اليهود في أوروبا محظور حظراً تاماً على جميع وسائل الإعلام، أن تتعاطي معها لا تلميحاً ولا تصريحاً. وهذا معناه في بساطة ووضوح أن أي مسؤول دانماركي أو ألماني أو نرويجي أو فرنسي، يمكنه بإدارة التحرير في أية صحيفة أن يملي ما يشاء، بل ويتطوى بالمشاركة في وضع قواعد النشر. والذي يبعث على الحنق والغيظ؛ خصوصاً في قضية الرسوم المسيئة للإسلام ولرسوله الكريمﷺ، أن الغرب يزعم أنه ينتصر لحرية الرأي مع أنه في أحداث مشابهة ذبح حرية الرأي دون أن يبالي.

وعندما أصدر وزير التعليم الفرنسي قانون جايسو الشهير الذي يجرم أي باحث أو كاتب يعالج من قريب أو من بعيد قضية المحرقة/ أو الهولوكوست لم يبك الباكون في الغرب على حرية البحث العلمي التي أهدروا دمها.

ولم ينبس أحد ببنت شفة عندما سحبوا من الباحثين (روبير فوريسون وزميله هنرى لوك) لقب دكتور وطردوهما من مواقعهما العلمية؛ في جامعتي ليون ونانت في فرنسا عقاباً لهما على أبحاثهما في تاريخ اليهود. وقد دفع أستاذ فرنسي آخر منصبه؛ كأستاذ كرسي للتاريخ المعاصر ثمناً لعناده، عندما صرح قائلاً: إن أحداً ليس فوق البحث العلمي والأكاديمي.

وكانت صحيفة "لومند الفرنسية" مثلت أمام المحكمة بسبب بيان نشره الفيلسوف الفرنسي/ المسلم روجية غارrودي، يدين فيه المجازر الإسرائيلية ويجرم الفاعلين.

ثم تثور علامات استفهام أخرى، لا مناص منها مثل: لماذا الإسلام دون غيره يحرص الغربيين على النيل منه، والإساءة إليه؟ وإذا افترضنا أن الكاتبة البنغالية "تسليما نسرين" لم تكن مسلمة ووضعت كتابها "اللعنة"، هل كانت الصحافة العربية ستهتم بها وتعتبرها طريدة حرية الفكر والتعبير؟ والشيء نفسه يمكن ان ينصرف على "سلمان رشدي وروايته" آيات شيطانية.

فالثابت انطلاقاً من كل هذه الوقائع أن الحديث عن حرية الفكر هو "حديث إفك"، وكلمات حق أريد بها باطل؛ لأن الازدواجية والمعايير، التي يرتع فيها الغرب السياسي تمارس فقط وبقوة ضد الإسلام والمسلمين. والمؤسف أنه وسط غبار هذه المعركة، استيقظت نعرات كثيرة تحرّض العالم الغربي على شن حرب ضروس ضد الشرق العربي والإسلامي. وحاولت دول أخرى أن ترد على الإساءة بإساءة أخرى ضد مقدسات الغرب وشعائره وهو أمر غير محمود؛ لأن دوائر التعصب إذا اتسعت فسوف تتحول إلى أتون يحرق القاصي والداني (١٠).

أنت عربي/ مسلم؛ إذن أنت مكروه، أو على الأقل أنت شخص غير مرغوب فيه. فالعرب هم أس البلاء العظيم في المجتمعات الغربية، ويقفون دائماً وبالضرورة وراء القضبان بسبب قائمة طويلة من الاتهامات التي توجه إلى صدورهم: فهم المسؤولون عن نبش قبور اليهود، وهم مصدر كل الجرائم، وهم الذين قتلوا المخرج السينمائي الهولندي (ثويفان جوخ)، وفجروا مترو مدريد في أسبانيا، وأحرقوا المركز اليهودي في باريس، وخططوا لتفجيرات لندن التي حصدت العشرات. لذلك لابد من التضييق عليهم واعتبارهم معادين للسامية، وكارهين للمدنية والحضارة. ويتوجب الحذر منهم وعزلهم من باقي المجتمع ولم

لا؛ وهم على حد قول جان ماري لوبين/ الزعيم اليمني المتطرق في فرنسا، يمثلون "الشر كل الشر" (١١).

وهكذا أصبح مسلسل إساءة معاملة المسلمين في أوروبا أمراً عادياً ومألوفاً. فالتقارير الخاصة بالحريات الدينية في العالم، تسجل تصاعداً للمخاوف من المشاعر المعادية للإسلام في العديد من الدول الغربية، ومن بينها دول من أقوى حلفاء أمريكا. وتذكر التقارير أن زيادة عدد المهاجرين المسلمين؛ هي السبب وراء تصاعد المشاعر المعادية للإسلام. ومنذ يونيو/ جوان عام ٢٠٠٢م، سجل المسلمون البريطانيون محاولات تخريب لممتلكاتهم، وهجوماً على المساجد. وقد تم تحريض البعض من خلال التغطية السلبية وغير المسؤولة لوسائل الإعلام. وفي يونيو ٢٠٠٣ كتبت تعليقات معادية للمسلمين بأسلوب فظ على جدران المسجد الرئيسي في برمنجهام: بعد إذاعة برنامج تلفزيوني روائي لهيئة الإذاعة البريطانية (بي، بي، سي) يوضح كيف يتم تجنيد منفذي العمليات الانتحارية في مسجد برمنجهام (١٢).

وفي إيطاليا التي يعيش فيها نحو مليون مسلم، شارك العديد من الزعماء السياسيين والدينيين؛ ومن بينهم سيلفيو بيرلسكوني رئيس الوزراء في الحملة المعادية؛ من خلال وصف المسلمين المهاجرين بأنهم يمثلون تهديداً لإيطاليا، والزعم بأن المسلمين غير قادرين على الاندماج مع بقية المجتمع. وفي سبتمبر ٢٠٠١ زاد بيرلسكوني من إشعال الحركة المعادية للإسلام؛ بسبب وصف الحضارة الإسلامية بأنها أقل شأناً من الحضارة الغربية. وأثارت تعليقاته غضب المسلمين في كل أنحاء العالم، وقد أدانها العديد من الزعماء الغربيين.

وطبقاً لما ذكرته التقريرات؛ فإن تقييد الدولة للحرية الدينية، يعتبر السبب الثاني الذي أدى إلى التعصب ضد المسلمين في أوروبا.

وانتقد جون هانفورد، وهو سفير الولايات المتحدة لشؤون الحريات الدينية الدولية، فرنسا بسبب موقفها بشأن ارتداء المرأة المسلمة للحجاب، وصرح قائلاً: "ينبغي أن يكون كل الأشخاص قادرين على ممارسة دينهم

ومعتقداتهم بحرية، وبدون تدخل من الحكومة ماداموا يفعلون ذلك من دون إثارة وترويع للآخرين في المجتمع.

والجدير بالذكر أن الجدل بشأن ارتداء الرموز الدينية خاصة الحجاب الإسلامي، قد زادت حدته في فرنسا منذ اقتراح الرئيس جاك شراك إصدار قانون يحظر ارتداء الرموز الدينية في المدارس الحكومية، وتنظيم ارتدائها في أماكن العمل. وكان جدل آخر بشأن الحجاب قد أثير في ألمانيا في يونيو ٢٠٠٢، بعد أن أيدت محكمة إدارية الحظر الذي صدر عام ١٩٩٨م في ولاية بادن فورتيبورج الجنوبية؛ يمنع المدرسات المسلمات من ارتداء الحجاب في الفصول الدراسية.

وفي إطار اتساع دوائر الكراهية ضد العرب والمسلمين، تشن المنظمات النازية حملة دائمة لجمع التبرعات لتمويل ما تسميه كفاح العرق الآري"، من خلال عشرات فرق موسيقي البوب التي يديرها "حليقو الرؤوس" والتي تجمع الأموال بالملايين من خلال الحفلات التي تقيمها في مختلف أرجاء العالم (١٣).

وهذا يعنى أن الحملة ضد الإرهاب في ألمانيا، تركزت على ملاحقة المنظمات الأصولية الإسلامية السرية المتهمة بدعم الإرهاب، في حين يتم إغفال النشاط النازي تماماً. ففي إطار الحملة المناهضة للإرهاب وتكتيك الضربات الاجهاضية، الذي اتبعته وزارة الداخلية الألمانية، تم حظر أكثر من سبع منظمات أصولية في ألمانيا بتهمة العنف والتخطيط لتنفيذ عمليات إرهابية. كما كشفت دائرة حماية الدستور "الأمن العام" عن إخضاع سائر الإسلاميين المشتبه فيهم وسائر المساجد والجمعيات الإسلامية للمراقبة، إلا أنها لم تعلن حظر أي من المنظمات اليمنية المتطرفة واعتقال أعضائها، بل إن السائد كان عودة المنظمات النازية المحظورة بحلل "ديمقراطية" مموهة تتناسب مع ألوان الدستور الألماني. والخطير في الأمر أن بعض الاتجاهات تتخفى وراء أنشطة ثقافية وترفيهية وأغان شبابية، وهي تدعو إلى كراهية الآخر وإبعاده. وليس من شك في أن مخاوف المهاجرين من ذوي الأجناس الجنوبية قد زادت في

الآونة الأخيرة، خصوصاً بعد ارتكاب النازيون الجدد جملة من الجرائم في حقهم، منها الجريمة التي راح ضحيتها في فرنسا في مايو ١٩٩٥م شاب يدعى "إبراهيم بور" (١٤).

لم تنطفئ نيران قضية الحجاب منذ اشتعالها لأول مرة في المدارس الفرنسية في عام ١٩٨٩م، فهي تنفجر ثم تهدأ بين الحين والآخر. ومعلوم أن فرنسا، والتي يشكل المسلمون فيها نسبة معتبرة من تعداد سكانها، حظرت الرموز الدينية في المدارس الحكومية في إجراء يهدف إلى القضاء؛ على ما وصفته بالنفوذ المتزايد للإسلاميين المتشددين بين الشباب.

وفي نظرنا أن الجدل حول الحجاب سيبقى ما بقي العرب والمسلمون في أوروبا والغرب، خصوصاً وأن النقاشات لم تتوقف بعد حول سؤالين محوريين: الأول؛ إذا كان الحجاب ضاراً إلى هذا الحد الذي يبرر طرد كل ما ترتديه في المدرسة، فلماذا لا نسير مع المنطق ونمنع جميع أنواع الحجاب؛ سواء في المدرسة أو الشارع أو المواصلات العامة؟، والثاني: لماذا تستثنى الحجاب كعلامة دينية للمسلمات، بينما تترك علامات أخرى يلبسها أتباع الديانات الأخرى في فرنسا وباقي الدول الغربية. كما أن الخطورة تكمن في أن الحرب الضاربة، التي تشن بين وقت وآخر ضد الحجاب، لن تؤدى إلى تراجع الظاهرة الإسلامية، كما يعتقد البعض بل العكس هو الصحيح؛ بمعنى أن ذلك قد يشجع المتطرفين على تبني القضية، واعتبار أن أي انتصار لها هو في الواقع انتصار لهم (١٥).

المبحث الثالث:
الغرب.. ومصادرة الإسلام وتفريخ الإرهاب.

منذ وقوع الأحداثؤ الإرهابية سواء في مدريد أو لندن أو باريس، تغيرت النظرة إلى المساجد والزوايا في أوروبا، فأصبحت أشبه بمعامل تفريخ المتشددين. لذلك بدأت السلطات الغربية تضعها تحت الميكروسكوب الرقابي؛ خصوصاً خطب الجمعة والدروس والمواعظ الدينية، التي يلقيها الأئمة باللغة العربية سواء طوال الأسبوع أو أيام الجمع. ولذلك اشترطت السلطات البريطانية مثلاً أن يتعلم الأئمة اللغة الإنجليزية، أما السلطات البلجيكية فاشترطت أن تتم ترجمة خطب الجمعة إلى اللغة الفرنسية قبل إلقائها. والشيء نفسه فعلته الدانمارك. أما أسبانيا فلقد شددت ليس فقط على تعلم الأئمة اللغة الأسبانية، ولكن أيضاً على تدريب الأئمة على شرح الإسلام بطريقة صحيحة..

وكان برلمانيون هولنديون قد طالبوا باستبعاد الأئمة الأجانب، لأن خطبهم الدينية لا تخلو من مضامين سياسية وعنصرية. والمعروف أن فرنسا قد تداركت هذا الأمر، وامتنعت عن استضافة أئمة من الدول العربية والإسلامية، وبادرت بالتفكير في مشروع إنشاء معهد لتخريج الأئمة الذين تحتاجهم فرنسا، تكون مهمته فرنسة الإسلام، أي صبغه بالثقافة والأعراف الفرنسية [١٦].

وكانت أحداث ١١ مارس ٢٠٠٤م أجبرت مدريد على البحث عن وسائل أفضل لكيفية مراقبة الجالية الإسلامية، وأماكن عبادتها. وحتى هذا التاريخ لم تكن الإدارة تتدخل في الممارسات الدينية لأي طائفة موجودة في البلاد منذ أكثر من عشر سنوات، لكن اكتشاف هذه الجماعات الأًصولية غير من الأمر، وأكدت الحكومة الأسبانية رغبتها في التخلص من التسامح؛ الذي أسهم في ظهور هذه الجماعات المتطرفة. فالأئمة الوهابيون يسيطرون من وجهة البعض على التعليم الإسلامي في أسبانيا، في حين أن أغلبية المؤمنين في الغرب يتبعون المذهب السني المالكي. وهؤلاء الأئمة في نظر مدريد يتبعون نهجاً دينياً متشدداً، وإلى إسلام غير

متسامح وهو ما يفرض الحاجة لإنشاء منظمة تكافح الإسلام الخفي، ورجال الدين الذين يلقون خطبهم في أماكن تحولت إلى مساجد.

وفي إطار "أبلسة" أئمة المساجد واعتبارهم مصدراً لتفرخ ثقافة العنف، تحمس توني بلير رئيس وزراء بريطانيا، ووضع "خطة عاجلة" لتنقية الأجواء الدينية والسياسية في بلاده؛ ممن سماهم المحرضين على العنف والإرهاب. ومبرره في ذلك أن فاتورة تفجيرات السابع من يوليو ٢٠٠٥ كانت ثقيلة على المواطنين، ومحرجة له سياسياً. وللإنصاف يجب أن نذكر أن لندن، ليست هي التي فتحت باب طرد العناصر الإسلامية المتطرفة من أراضيها، فقبل نحو عام من ذلك طردت السلطات الفرنسية أحد أئمة التطرف في جنوب فرنسا، وفعلت الشيء نفسه الدانمارك، وسبقت بروكسل غيرها من العواصم الأوربية؛ عندما اشترطت ترجمة نصوص خطب الجمعة قبل إذاعتها في المساجد؛ لمعرفة ماذا يقال للمسلمين من فوق المنابر.

والثابت على كل حال أن أوروبا والغرب؛ بصدد وضع جملة من القوانين الرادعة للإرهاب، الذي أصبح عابراً للقارات، بعدما تبين أنه لا وطن له، وليس حكراً على منطقة أو جنس أو عرق بعينه. واتخذت بروكسل الخطوة الأولى في هذا الاتجاه، برصد نحو ٢٥٠ يورو كدفعة أولى لبدء إجراء الأبحاث والدراسات اللازمة؛ لسبر أغوار ظاهرة الإرهاب وأفضل الطرق في مكافحتها. بينما مالت أسبانيا إلى إقامة "فضاء حواري" يجمع الأوروبيين والعرب والمسلمين وصولاً إلى معادلة تحالفية وليس تنافرية بين الحضارتين الغربية والإسلامية.

ارتكبت أوروبا وأمريكا أخطاء كثيرة أدت إلى تضخم ظاهرة الإرهاب في العالم، منها أنها سمحت باحتضان آلاف المتطرفين والمتشددين؛ الذين حولوا العواصم الأوربية الكبرى/ لاحقاً؛ مثل باريس ولندن ومدريد إلى "جنات" فيحاء، تستقبل الوافدين الجدد بالترحاب، وتقدم لهم التسهيلات كافة. ونسيت أنه سوف ينقلب يوماً السحر على الساحر، لتكتوي هذه العواصم لاحقاً بنيران الإرهاب. والشيء نفسه فعلته

أمريكا التي خلقت ظاهرة أسامة بن لادن وقاعدته من عدم. فدربته وسلحته، وأنفقت على جيوشه. وعندما انتهت مهمة هذا التنظيم من وجهة نظرها في أفغانستان لفظته، ففرض هذا الشاب المتمرد وجند نفسه وزملاءه لمناطحة أمريكا وتهديدها في الداخل والخارج [١٧].

المؤسف أن هذه الأخطاء/ الإستراتيجية في التفكير الغربي، يدفع المهاجرون العرب والمسلمون جانباً من فاتورتها الثقيلة. فأصبحوا يقفون بالجملة وراء القضبان بتهمة الإرهاب والتطرف؛ لا لشيء إلا أنهم يشتركون مع أمثال (ابن لادن، والظواهري، والزرقاوي، والبغدادي) في الدين وليس في التوجه. ومهّدَ ذلك لظهور جماعات كارهة للعرب والمسلمين مثل (النازيون الجدد، وحالقوا الرؤوس)، كما قويت شوكة أحزاب اليمين المتطرف، التي ترى في الوجود الإسلامي والعربي في أوروبا احتلالاً. وهكذا بين عشية وضحاها أصبح مسلمو أوروبا وأمريكا في قفص الإتهام، ولا يكاد يومٌ يمر إلا ويتم اعتقال شاب في ألمانيا أو مجموعة من الرفاق في فرنسا، أو عدد من الأفراد في لندن، ومدريد وبروكسل للاشتباه في تورطهم في أعمال عنف وقتل وإرهاب.

وكما حامت شبهات حول عرب ومسلمين لمشاركتهم في أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ في أمريكا، وفي أحداث ١١ مارس ٢٠٠٤ في مدريد.

وهكذا ذهبت العديد من الجهات الغربية والأوروبية لتؤكد أن الإرهاب الدولي الناجم عن التطرف الإسلامي، هو وحده المسؤول عن الانفجارات والهجمات على المؤسسات والبلاد والعباد. وأصبحت أذرع تنظيم القاعدة تمتد كالأخطبوط لتدرب إسلاميين متطرفين في ماليزيا وبانكوك، وجنوب أفريقيا. وتواصلت حملت الدهم والمباغتة للأسر العربية والإسلامية المهاجرة؛ في ألمانيا وإيطاليا واتسعت دوائر الشك لتشمل كل المسلمين في استراليا. أما هولندا فتؤكد أن خلايا إسلامية متطرفة؛ نائمة في أراضيها، وهي تتعاون أوروبياً لرصد الحركات، وتبادل المعلومات في إطار إستراتيجية مكافحة الإرهاب. والثابت عملاً، أنه رغم هجمات ١١ سبتمبر في الولايات المتحدة كانت نقطة مفصلية وأساسية في

إستراتيجية مكافحة الإرهاب، وبداية لتدشين تحالف دولي ضد هذا الخطر العالمي، إلا أن أوروبا كانت تعيش هـذا الهـاجس قـبلاً، فـاكتوت فرنسا بنيران الإرهاب في عام ١٩٩٥م؛ عندما حصدت القنابل نحـو ٢٠٠ قتيـل فـي مترو الأنفاق الباريسي، وظهرت جماعات تحمل أسماء منها: خالـد قلقـال، ورشيد رامدا، وهما فرنسيان من أصول عربية [١٨].

المبحث الرابع:
فوبيا الإسلام.. في وسائل الإعلام الغربية.

وقد أذكت نيران حالة الإسلاموفوبيا (الخوف من الإسلام)؛ أمواج وقنوات وأوراق وكتابات الإعلام، حيث إن الغرب بات يرى في الحركات الإسلامية نوعاً من التبشير على غرار التبشير المسيحي من منطلق روح الحرب الصليبية، كما تحدثت أوساط أكاديمية عن أن التاريخ الإسلامي على مدى ١٤ قرناً؛ يؤكد أن الصراعات بينه وبين الغرب لم تتوقف في أي لحظة. بدءاً من حروب الفتوحات الإسلامية الأولى مروراً بالحروب الصليبية، وانتهاءً باحتلال الغرب لدول الإسلام، ثم الصراعات الإقليمية والدولية التي ينازع الغرب عليه في كل مكان في العصر الراهن. وتتحدث ذات الأوساط عن حرب باردة؛ مجتمعية بين الغرب والإسلام؛ تكون أوروبا مسرحاً لها، على أن يغذى العقل السياسي الأمريكي هذه الحروب. وكان طبيعياً أمام ترويج هذه الأفكار الصادمة، أن ترتعد فرائص أوروبا (شعوباً وحكومات) خوفاً من العرب والمسلمين؛ الذين يعيشون بين ظهرانيهم وداخل مجتمعاتهم. وأصبحوا أغلبية في عدد من الأحياء والمدن، والضواحي خاصة في فرنسا وإنجلترا وبلجيكا وهولندا.

ويسجل البعض تخوفه من أن الإسلام بهذا المعنى يرسم حدوداً جديدة لأوروبا، ويستخدم كل إمكاناته للوصول إلى السلطة السياسية، كما وصل الأفارقة والزنوج مؤخراً في أمريكا (١٩).

لابدّ من الاعتراف بداية بأن هناك صورة نمطية مشوهة للعرب والمسلمين؛ في الموروث الغربي أضيفت إليها بعض الرتوش إلا أنها لا تزال قابعة في العقل الغربي؛ من بينها صور الصحاري المقفرة والقصور التي يعيش فيها الفساد، والأسواق القذرة التي يزدحم فيها العرب والمسلمون الملتحون الكسالي غير المتمدنين. وتمتلئ القصص بشخصيات التجار الشعبيين المخادعين.

والخطر في الأمر أن بعض الكتابات الإعلامية تعرض صوراً مشوهة للعربي والمسلم: (بائع، مساوم، غشاش، نصاب، قاطع طريق، إرهابي، مسلم

متطرف. هذه الصور مشوهة والمبتذلة تعرض وتقدم في الثقافة الشعبية الغربية؛ في نصوص الأغاني والموسيقي والنكت الشعبية. وقد تلقفت "الميديا" - وسائل الإعلام والاتصال- هذه العناصر المغروسة في أذهان الغربيين عن العرب والمسلمين، ثم نفخت فيها من روحها ونشرتها في الأرجاء كافة، بحيث أصبحت عبارة "أنا عربي مسلم" مرادفة تماماً لعبارة "أنا إرهابي.. أنا وغد شرير متعطش للدماء...) [٢٠].

ويصل تشويه صورة العرب والمسلمين إلى أقصى درجاته في حصص وبرامج الأطفال، التي توحي بأنهم قوم أشرار ومغفلون.

ولم يحدث أن ظهر العربي المسلم في هذه البرامج "بطلاً نموذجياً إنسانياً" يعجب به الأطفال. وإنما هو بالضرورة وضيع وحقير وهمجي شرس؛ في أفلام الكارتون- الرسوم المتحركة-، ويهدد بقتلهم.

وتذكر بعض الدراسات أنه بسبب هذا الإلحاح الإعلامي على تشويه صورة العرب والمسلمين، فإن الأطفال الأمريكيين عندما يفكرون في "عربي/ مسلم" فإنه يربطونه بتعبيرات ومعان معينة بلحية وقميص، أو بترول، بنزين، إرهابي، وغد، بدوي، سيارات، كاديلات، مجرم ومتطرف يحمل حزام من المتفجرات الناسفة.

وعلى الرغم من أن رحالة وسواح ورجال إعلام كثيرين زاروا العالم العربي والإسلامي، وعرفوا العرب والمسلمين؛ يرتدون في معظمهم الملابس التقليدية والغربية، وهم مسالمون لا ينزعون إلى العنف، ثم هم فقراء وليسوا بأغنياء، وغالبيتهم لا تسكن قصوراً. فإن الصورة النمطية للعربي والمتوحش، والمسلم الهمجي المتعطش للدماء؛ هي التي لا تزال تقدم في كافة وسائل الميديا، مع سبق الإصرار والترصد (٢١).

وتصر الميديا الغربية على الربط بين الدين الإسلامي وبين سيادة الرجل وتفوقه على المرأة، كما يربط بين الإسلام وبين الحروب الدينية، وأعمال الإرهاب التي تصور المسلمين العرب على أنهم أعداء، وشيوخ بترول عاقدون العزم على استخدام الأسلحة النووية.

وحين يتم تصوير المساجد ودور العبادة، تنتقل الكاميرا من مشهد يصور العرب والمسلمين وهم يصلون، إلى مشهد آخر يصورهم وهم يقتلون المدنيين بالمدافع الرشاشة.

صورة أخرى دأبت وسائل الإعلام الغربية على بثها عبر مختلف الشاشات العالمية؛ لتصور المسلمين برابرة، ووحوشاً آدمية لا تتورع أن تفعل الفواحش.

والخطر في الأمر أن الإعلام الغربي دأب على الخلط بين الإسلام وبعض التصرفات الخاطئة.. فهذا الشخص الذي دخل إلى البنك وقال: "بسم الله معي قنبلة ولا أبخل على نفسي بالموت في سبيل قضية الإسلام، ضعوا كل الأموال في حقيبتي"، لا يمت للإسلام بصلة، فعمله هذا عمل إجرامي بكل المقاييس، إلا أنه لا يعني أن الإسلام هو الذي قام بسرقة البنك.

وإمعاناً في التشويه تسعى الميديا الغربية- وسائل الإعلام والاتصال- إلى إلصاق الرذائل بالإسلام والمسلمين، وتصور المسلم على أنه سفاح في كل الأوقات.

ليس من شك في أن وسائل الإعلام الغربية تتعمد الإساءة للإسلام وأهله، والدليل على ذلك هو تركيزها على فكرة الخوف من الإسلام، وإلقاء الرعب في قلوب الغربيين من كل ما هو إسلامي. ولعل نظرة سريعة على العناوين العريضة التي تتصدر منشورات الغرب، تؤكد هذه الحقيقة: المسلمون قادمون، الجهاد يتجه نحونا وضدنا، الوجه القبيح للإسلام، الإسلام يهدد الغرب، انتبهوا الإرهاب الإسلامي هو فرقة انتحارية عالمية، الحرب المقدسة تتجه نحونا، المتعصبون المسلمون سعداء مبتهجون عندما يقومون بالقتل، لأنهم ذاهبون إلى مكان بعيد أفضل "الجنة".

والخطر أن كثيراً من المعلقين والمحللين السياسيين في وسائل الإعلام الغربية، يضعون كل المسلمين في سلة واحدة من التصورات الخاطئة "فالكل متطرفون والكل أصوليون.. لا فرق بين الأصوليين

والمعتدلين؛ لأن رسالة الإعلام العالمية؛ هي نشر تعاليم الدين بكل الطرق؛ بما في ذلك القوة.. إنها النظرية السياسية للإسلام؛ وهكذا تتكاتف وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة على تشويه الإسلام، فتعـرض علـى الرأي العام يومياً صوراً لمسلمين متعصبين، ينادون بشعارات المـوت ضـد أعدائهم ويحملون بنادق وسكاكين،وكأنهم متعطشون لدماء، كما تعرض لمشاهد مسلمين غاضبين يتظاهرون في الشوارع يطالبون بقتل مؤلـف أو صحفي أو سياسي.

وفي هذه الصور اليومية يتم الإلحـاح علـى ربـط الإسـلام بـالعنف والإرهاب، وتجعله يعتقد أن جميع المسلمين أصوليون، وأن كلمة أصـولي تعني "عدواني متعصب".

وليس من شك في أن هناك بعض الأحداث التي أسـهمت فـي تكـون هذه الصورة السلبية عن العرب والمسـلمين؛ منهـا الضـجة التـي صـاحبت كتاب "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، فضلاً عن المظاهرات والاحتجاجات، وإصدار زعيم الثورة الإيرانية آية الله الخميني فتوى تبيح إهدار دم سلمان رشدي، ثم وقوف كثير مـن الهيئـات الحقوقيـة بجانـب سـلمان رشـدي، ووفرت بريطانيا له الحماية بوصفه أحد المضطهدين من جانب الأصـولية الإسلامية، وأحد ضحايا حرية الرأي والتعبير.

ومن خلال الأحداث الدرامية المصاحبة للكتاب أصبح المسـلمون فـي جميع أنحاء العالم موصومين بأنهم أبناء ثقافة الجريمة والقتـل، وأصـبح الإسلام في نظر الكثيرين في الغرب مصدراً للفوضـى والاضـطرابات فـي العالم [٢٢].

وثمة حجة أخرى مشابهة صاحبت صـدور كتـاب "العـار" للكاتبـة البنغالية تسليما نسرين التـي تتعـرض فيـه لحيـاة الرسـولﷺ ولقدسـية القرآن الكريم. وقد احتضنها الغرب، وأفسح لها المجال لكـي تكتـب، وأدان العرب والمسلمين واتهمهم بأنهم ضيقو الأفق ومستبدون، ولا مجال عندهم للفكر والإبداع. ناهيك عما روجت له وسائل الإعلام الغربية فيمـا يتعلـق بالصور الكاريكاتورية في تشويه نبي الإسـلام وخـاتم المرسـلين "محمـد

عليه أفضل الصلاة والسلام"، وما صرح به بعض قساوسة الغرب وآباء المسيحية عن الإسلام ونبيه مؤخراً.

والنتيجة التي حرصت الميديا الغربية على تأكيدها؛ هي أن الإسلام دين مغلق، وهو عدو الإبداع بكافة أشكاله، ولا هَمّ له سوى تخريج المتعصبين في كل مجال. وبالتالي فهو على طرفي نقيض مع الأفكار الليبرالية في الغرب.

وبعد تفجير مبني مركز التجارة العالمي في نيويورك، أصبحت كلمة "إسلام" مرادفة للقتل والإرهاب في الوعي الغربي. وقدم التلفزيون الأمريكي برنامجاً تحت عنوان: الجهاد في أمريكا، بحث في التطرف الإسلامي بالولايات المتحدة، أساء للإسلام بشكل فج وقح، وترك أثراً بالغاً في الوعي الجماهيري، ورسخ مفهوم الإرهاب. وكان معدو البرنامج قاموا بتعريف الجهاد الإسلامي؛ بأنه زرع قنابل موقوتة لقتل المدنيين الأبرياء في كل مكان بالعالم.

وكتب آخرون يحذرون من العدو الأخضر الإسلامي، الذي أصبح خطراً داهماً- بعد الشيوعية- الخطر الأحمر، وأعلنوا أن الإسلام يشن حرباً ضد المسيحيين والصهيونية والرأسمالية الغربية.

وليس أخطر من جعل أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة رمزاً للإسلام والمسلمين، مع أن النظرة العقلانية للأمور، ترى أن أحداً ليس حجة على الإسلام، ولابد من الفصل بين الإسلام كدين وعقيدة، وبين ممارسات المسلمين التي تصيب وتخطئ [٢٣].

وهكذا يصر رسامو الكاريكاتور على إلباس عباءة أسامة بن لادن؛ لكل من يتحدث باسم الإسلام ليبدو للناس أجمعين أن "بن لادن" ليس إلا الصورة النموذجية للمسلم الحق.

كما يصرون على إظهار العربي في صورة مضحكة، فهو دائماً ضخم الجثة، ذو لحية كثيفة، وشارب مع أنف مقوس وعباءة واسعة وكوفية رأس، يحمل خنجراً. ثم تطور لاحقاً فحمل البندقية وكلاشينكوف، ويرسمونه واقفاً في بيئة صحراوية وتبدو من خلفه آبار البترول.

ومن خلال عملية تحليل مضمون المواد التلفزيونية في الغرب، نجد أن التلفزيون الفرنسي ثم الألماني هما أكثر تلفزيونات الغرب تشويهاً لصورة المسلمين والإسلام. وذلك لأنهما من أكثر الدول الغربية استقبالاً للمهاجرين من الدول العربية والإسلامية، وخاصة في ظل الاتجاه السائد حالياً لطرد المهاجرين والأجانب.

أما السينما فقد استأثرت بنصيب الأسد في عملية تشويه صورة العرب والمسلمين، حيث تظهر شخصيات عربية وإسلامية سلبية منفردة، والرجال يحطون من قيمة وثقافة المرأة ويعتبرونها مخلوقاً أدني من الرجال .. والمرأة العربية إما إرهابية تقوم بتفجير القنابل، أو هي مجرد حريم وأداة إمتاع للرجل.

الخاتمة :

وفي ختام هذا البحث توصلت لبعض النتائج والتوصيات والتي منها:

أولاً: النتائج:

١- لقد أصبحت وسائل الإعلام في عصرنا الحالي من أقوى أسلحة التدمير الشامل، بل صارت وسيلة الدول الكبرى لفرض سلطانها، وبسط سيطرتها، وهيمنتها وإنفاذ أهدافها وتحقيق مآربها.

٢- إن مقاومة الإسلام للعلمانية، واستعصائه على العلمنة، وعلو نجمة في سماء التدين بديانات السماء .. هو السبب الحقيقي وراء تشويه صورته والهجوم عليه في وسائل الإعلام الغربية .

٣- إن زيادة عدد المهاجرين المسلمين إلى أوروبا؛ هي السبب وراء تصاعد المشاعر المعادية للإسلام وتشويه صورته.

٤- إن الجدل حول الحجاب سيبقى ما بقي العرب والمسلمون في أوروبا والغرب.

٥- لقد وضعت السلطات الغربية المساجد والزوايا في أوروبا تحت الميكروسكوب الرقابي؛ خصوصاً خطب الجمعة والدروس والمواعظ الدينية، التي يلقها الائمة باللغة العربية.

٦- يصل تشويه صورة العرب والمسلمين إلى أقصى درجاته في حصص وبرامج الأطفال التي توحي بأنهم قوم أشرار ومغفلون..

٧- إن وسائل الإعلام الغربية تتعمد الإساءة للإسلام وأهله.

٨- أن كثيراً من المعلقين والمحللين السياسيين في وسائل الإعلام الغربية يضعون كل المسلمين في سلة واحدة من التصورات الخاطئة.

٩- يتم في وسائل الإعلام الغربية الإلحاح على ربط الإسلام بالعنف والإرهاب، حيث تجعل الملتقي يعتقد أن جميع المسلمين أصوليون.

١٠- ومن خلال عملية تحليل مضمون المواد التلفزيونية في الغرب ، نجد أن التلفزيون الفرنسي ثم الألماني هما أكثر تلفزيونات الغرب تشويهاً لصورة الإسلام والمسلمين.

١١- أما السينما فقد استأثرت بنصيب الأسد في عملية تشويه صورة العرب والمسلمين..

١٢- لابدّ من الفصل بين الإسلام كدين وعقيدة ، وبين ممارسات المسلمين التي تصيب وتخطئ

١٣- إن الإرهاب ظاهرة عالمية لا ظهر له ولا أرض ولا وطن، ومن الخطأ نسبته إلى ملة دون أخرى ، أو أمة دون أخرى.

ثانياً: التوصيات:

١/ إيجاد قنوات للحوار مع القيادات السياسية والفكرية والإعلامية والثقافية في الغرب عن طريق مؤسسات المجتمع المدني الإسلامي للحد من الآثار السلبية لظاهرة الإسلاموفوبيا، وكشف زيف الصور النمطية المشوهة عن الإسلام والمسلمين.

٢/ إنشاء مركز مختص في جمع المعلومات وتحليلها والأفكار والدراسات التي تتناول الإسلام وحضارته بالتشويه،

٣/ تصميم خطط كفيلة لمواجهة الحملات الغربية ضد الإسلام.

٤/ التوجه الى الشبكة العنكبوتية لتوضيح صورة الإسلام المشرقة للعام.

المصادر والمراجع

(١) جون سيوزيتو، التهديد الإسلامي: خرافة أم حقيقة، طبعة القاهرة، ص ٣١٤.

(٢) دكتور محمد عمارة: الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب، الطبعة الأولى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، ص ١٢ وما بعدها.

(٣) نيكسون: [الفرصة السانحة Seize The moment]، ترجمة أحمد صديق مراد، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٢م، ص ١٤٠.

(٤) فوكوياما- وهنتنجتون [نيوزويك الأمريكية] العدد السنوي- ديسمبر ٢٠٠١- فبراير ٢٠٠٢م.

(٥) دكتور محمد عمارة: الغرب والإسلام أين الخطأ وأين الصواب، مرجع سابق، ص ١٧ وما بعدها.

(٦) محمد على التسخيري: الحوار مع الآخر، المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب، طهران، إيران، ٢٠٠٧م، ص ٢٨.

(٧) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٦،ص ٩.

(٨) على حرب: تواطؤ الأضداد، الآلهة الجدد وخراب العالم، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ٢٠٠٨م، ص ٧٧.

(٩) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغرب من الإسلام،ص ١١.

(١٠) منى فياض: الإسلام والمسلمون في الغرب، مجلة منبر الحوار، بيروت، ١٩٨٦م،ص ٤٥.

(١١) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا لماذا يخاف الغرب من الإسلام، ص ١٠٧.

(١٢) صورة الإسلام في الصحافة البريطانية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٩٩.

(١٣) صورة العرب في صحافة ألمانيا، مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٣م، ص ١٢٠.

(١٤) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغـرب مـن الإسـلام، ص ١١١.

(١٥) أميرة عبد العزيز: إفتـراءات علـى الإسـلام والمسـلمين، دار السـلام للتوزيع والترجمة، ٢٠٠٢م، ص ١٢٣.

(١٦) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغـرب مـن الإسـلام، ص ١٢٥.

(١٧) جان فرانسوا بايـار وآخـرون: الإسـلام والفكـر السياسـي.. الغـرب، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ٢٠٠٠م،ص ١١.

(١٨) سعيد اللاوندي: الإسلاموفوبيا، لماذا يخاف الغـرب مـن الإسـلام، ص ١٣٩.

(١٩) حلمي خضر ساري: صورة العرب في الصـحافة البريطانيـة، مركـز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨م، ص ١٤٥.

(٢٠) محمد مصالحة: الإعلام/ العرب والصوت الآخر، التجربة البريطانيـة، دار البيرق للطباعة والنشر، عمان، الأردن، ١٩٩٨م، ص ١٦٩.

(٢١) ميخائيل سليمان: صورة العرب في عقول الأمريكيين، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص ١٢٦.

(٢٢) سعيد أيـوب: شـيطان الغـرب، سـليمان رشـدي الرجـل المـارق، دار الصديقية للنشر، ١٩٩٨م، ص ١٣٢.

(٢٣) علـى بـن إبـراهيم النملـة: الشـرق والغـرب، منطلقـات العلاقـات ومحدداتها، المركز الثقافي العربي، الدار البيضـاء، بيـروت، ٢٠٠٥م، ص ٨٦.